2021-6-17

ندوات (10)

مجمع اللغة العربية - ليبيا

الملتقى الأول للدراسات الأندلسية في ليبيا

(مقاربات أولية للرسائل والأطروحات الليبية في الداخل والخارج)

طرابلس – الأربعاء

(2018/12/19م)

تحرير

عمار محمد جحيدر

2020

المجلد الأول

الكتَّابُ المغاربة في مسالك الأبصار
لابن فضل الله العمري (ت 749هـ/ 1349م)
دراسة في المنهج والمحتوى مع ملحق لتحقيق النص

(ماجستير. كلية اللغات – جامعة طرابلس، 1999)

د. نوري أحمد عبيريد

(كلية اللغات . جامعة طرابلس)

الحمد لله الذي أنزل الذكرَ الحكيمَ باللغةِ العربيةِ فشرفتْ بالوحي؛ به حُفظتْ، وعليه كلمةُ العربِ توحدتْ، وبسحرِ بيانهِ وجمالِ تعبيرهِ وجزالةِ عباراتِه استقرتْ، وكونتْ حضارةً إنسانيةً عظيمةً، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ خلقِ اللهِ؛ أفصحِ العربِ لسانًا وأوضحِهم بيانًا؛ سيدِنا وحبيبِنا محمدٍ، وعلى آلهِ وصحبِه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الجمعُ الكريمُ كلٌّ بمقاماتهم المحفوظة، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وأسعد الله صباحَكم بكل خير.

يسعدني في البدايةِ أن أرفعَ على كاهلِ التَجِلَّة تقديري الكبير إلى مَجمَعِنا الموقر؛ مجمع اللغةِ العربيةِ بليبيا العزيزة، والقائمين عليه، الذين نهضوا متفضلين باستضافة هذا الملتقى العلميِّ الأندلسيِّ المبارك، إن شاء الله تعالى.

عنوان النص:

(الكتَّابُ المغاربةُ في مسالكِ الأبصار، لابن فضل الله العمري، في عصور: الطوائفِ والمرابطين والموحدين، دراسةً في المنهج والمحتوى، مع ملحقٍ لتحقيق النص).

العمل في الأصل رسالة تقدمتُ بها إلى قسم اللغة العربية، بكلية اللغات، جامعة طرابلس، لنيل الإجازة العالية (ماجستير)، للعام الجامعي 1999م، أشرف عليها وتحمَّل عناء متابعتها: الباحثُ الألمعيُ الأصيلُ، والأديبُ الظريفُ النبيلُ، الأستاذ الدكتورُ: عبدُ الحميد عبد الله الهرامة، كما تشرفتْ الرسالةُ بلجنةِ مناقشةٍ مكونة من: الأستاذِ العلاَّمةِ الجليلِ الدكتورِ: محمد مسعود جبران، وبمعية الأُستاذِ المفضالِ العلاَّمةِ الدكتورِ: رمضان سعد القماطي، وقد أبانت ملاحظاتهما وتوجيهاتهما عن غزير علمهما وتواضعهما، ومن بواعث الوفاء والتقدير في هذا المقام المبارك، أن أسدى الشكر والامتنان مجددًا لهم جميعًا، داعيًا اللهَ أن يَمُدَّ في أعمارهم ويُمتِّعهم بالصحة والعافية، ويجزيهم عنَّا كل خيرٍ، وأن يمُنَّ على أستاذنا ووالدنا الدكتورِ: محمد مسعود جبران، بالشفاءِ العاجل، وأن يرجعَ لنا سالمًا غانمًا.

المؤلف:

هو أحمد بن يحيى بن فضل الله بن أحمد العمري، أبو العباس شهاب الدين، يتصلُ نسبُه إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ولذلك لُقبَ بالعمري، وهو مؤرِخٌ وأديبٌ دمشقيٌ، ولد في دمشق سنة 700هـ(1301م)، وتلقى بها تعليمه وبرعَ في الكتابةِ وفنونِها والعلوم، فكان إماماً في الترسُّلِ والإنشاءِ، عارفاً بأخبارِ رجالِ عصرهِ وتَراجُمِهم، غزيرُ المعرفةِ بالتاريخ، ولاسيما تاريخ ملوكُ المغولِ من عهدِ جنكيزخان إلى عصره.

وفي عهدِ السلطانِ الناصرِ محمد بن قلاوون المملوكي، ذهبَ العمري إلى القاهرة، وتقلّد رئاسةَ ديوانِ الإنشاء، وكان له الفضلُ في الكثيرِ من الدراسات؛ فقد عني بدراسةِ الجغرافيةِ السياسيةِ والفلكِ، وتواريخِ الأممِ وعجائبِها، وتجوّلَ في البلادِ من الشام إلى الحجاز والأناضول، وغيرها من بلاد الأرض، وجاءت وفاته بدمشق سنة 749هـ(1349م).

تبوأ العمري إمامةَ البلاغةِ والبيانِ والترسلِ في عصره، حتى أنَّ الصفدي - معاصرُه وصديقُه - يفضلُه في هذا الفن على القاضي الفاضل، ويصِف خلاَلَه ومواهِبَه الأدبيةِ في تلك العباراتِ البليغةِ: "يتدفق بحرُه بالجواهرِ كلاماً، ويتألقُ إنشاؤه بالبوارقِ المُستَعِرةِ نظاماً، ويقطِرُ كلاَمُه فصاحةً وبلاغةً، وتندى عباراتُه انسجامًا وصياغةً، وينظرُ إلى غيبِ المعاني من سترٍ رقيقٍ، ويغوصُ في لُجّةِ البيانِ فيظفرُ بكبارِ اللؤلؤِ من البحرِ العميقِ، قد استوتْ بديهتُه وارتجالُه، وتأخرَ عن فروسيتِهِ من هذا الفنِ رجالُه، يكتبُ من رأسِ قلمهِ بديهًا ما يعجِزُ القاضي الفاضلُ أن يُدَانِيهِ تشبيهًا، وينظم من المقطوعِ والقصيدةِ جوهرًا يخجِلُ الروضُ الذي بَاكرَهُ الحيا مُزهراً، صرفَ الزمانَ أمرًا ونهيًا، ودبَّرَ الممالكَ تنفيذًا ورأيًا، ووصَلَ الأرزاقَ بقلمِه، وُرويتْ تواقيعُه، وهي سجلاتٌ لحُكمِه وحِكمه، لا أرى أن اسمَ الكاتبِ يصدقُ على غيره ولا يُطلق على سواه".[1]

ثم يصفه الصفدي بعد ذلك بالأديب الكامل، ويُنوِّهُ بقوةِ ذَاكِرتِه، وحُسنِ ذَوقِه، ويقول لنا إنَّه- أي العمري- كان آيةً في النثرِ والنظمِ والترسلِ البارعِ عن

[1] الوافي، 254/18.

الملوك، وأنَّه: "لم ير من يعرفُ تواريخَ الملوكِ المغولِ من لدُنِّ جنكيزخان معرفتَه، وكذلك ملوكِ الهندِ والأتراك. وأمَّا معرفتُه الممالكِ والمسالكِ، وخطوطِ الأقاليمِ والبلدانِ وخواصِها، فإنَّه فيها إمامُ وقتِه".[1]

ولأقوال الصفدي وهو إمامُ النقدِ في عصرِه- قيمتُها في التنويهِ بخلاَل العمري الأدبيةِ، والعلميةِ الفائقة، بيد أنَّ تراثَ العمري نفسَه ما زال خيرَ شاهدٍ بعبقريته، ولاسيما في فنِّ الإنشاءِ والترسلِ، ولا عجب فقد قضى العمري ردحًا طويلاً من حياتِه في ديوانِ الإنشاءِ وكتابةِ السرِ، بل كان على رأس كتُّابِ الإنشاءِ وأعلاهِم منزلةً لدى السلطان الناصر محمد، وقد كان العمري فوق ذلك شاعرًا مجيدًا؛ ومن رقيقِ شعره قوله:[2]

أأحبابنا والعذر منا اليكمو ... إذا ما شغلنا بالنوى أن نودعا
أبثّكموا شوقاً أباري ببعضه ... حمام العشايا رنة وتوجعا
أبيت سمر البرق قلبي مثله ... أقضي به الليل التمام مروعاً
وما هو شوق مدة ثم ينقضي ... ولا أنّه يلقي محباً مفجعا
ولكنّه شوق على القرب والنوى ... أغص الأماقي مدمعًا ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب في العمر ساعة ... كمن فارق الأحباب في العمر أجمعا

لم تتجاوز سنواتُ حياةِ العمري الخمسين عامًا، إلاَّ أنَّه تركَ لنا تُراثًا حَافِلاً، يَنمُّ في مجموعِه عن غزارةِ مادتِه ورفيعِ مواهبِه، ما يزال معظمُه مخطوطًا؛ ومن

[1] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[2] المصدر نفسه، 18/ 267.

أهم مؤلفاتِه: موسوعتُه الكبرى (**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**)، و(**الدعوة المستجابة**) و(**صبابة المشتاق**)، وهو في المدائح النبوية، و(**سفرة السفرة**)، و(**دمعة الباكي**)، و(**يقظة الساهر**)، و(**نفحة الروض**)؛ وكلها من كتبِ الأدبِ والبيان، وكتاب (**فواصل السمر في فضائل آل عمر**)، وكتاب (**الشتويات**)، وهو رسائل في الشتاء، و(**النبذة الكافية في معرفة الكتاب والقافية**)، وكتاب (**التعريف بالمصطلح الشريف**)، وهو مجموعةُ نماذجٍ من الرسائلِ المُلوكيّة والأميرية، وطائفةٍ كبيرةٍ من القصائدِ والموشحاتِ والتقاليدِ والمناشير.

إنَّ تعددَ مؤلفاتِ العمري، تدلُّ دلالةً واضحةً على عبقريتِه، وتعددِ ميادينِ ثقافتِه، وموهبةٍ أصيلةٍ في اقتناصِ المعرفةِ، وتضعُنَا أمامَ شخصيةٍ أدبيةٍ فكريةٍ علميةٍ سياسيةٍ فريدةٍ، قصيرةِ العمرِ خصبةِ النتاج، مجردُ ظهورها وظهور أترابها يرفعُ من قيمةِ العصرِ الذي عاشوا فيه، ويُعلي من شأنه ويُمجِّد أيامه.

ألفَ العمريُ موسوعةَ (**مسالك الأبصار**)، في زمنِ السلطانِ الناصرِ محمد بن قلاوون، المتوفى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة للهجرة، وتُعدُّ من الآثارِ الإسلاميةِ الضخمةِ التي تمتازُ بغزارةِ مادتِها وتنوعِ موضوعاتِها ونفاسةِ معلوماتِها؛ وهي ثالثُ ثلاثةٍ من الموسوعاتِ العربيةِ الإسلاميةِ الضخمة، التي كُتبتْ في عصورٍ متقاربة، وامتازتْ على جميعِ الآثارِ الإسلاميةِ بضخامتِها وتنوعِها وطرافتها؛ وهي: (**نهاية الأرب**)، للنويري، و(**صبح الأعشى**)، للقلقشندي، و(**مسالك الأبصار**).

شرعَ العمري في تأليفِه لهذه الموسوعةِ في النصفِ الأولِ من القرنِ الثامنِ الهجري، بعدما اعتقِل وصودرت أموالُه، أثناءَ الإقامةِ الجبريةِ التي فرضها عليه الناصرُ بن قلاوون سنة 738هـ، والتي دامت حتى 740هـ.

نطالع ضمن موضوعات أجزاء الموسوعة، التي بلغت سبعة وعشرين جزءًا، العديدَ من عناوين الجغرافيا والحضارةِ والعمرانِ، مثل: الأرض وصفة جغرافيتها وأقاليمُها، والمساجد والمعابد والأديرة، وممالك الشرق الإسلامي، وممالك اليمن والغرب الإسلامي، وقبائل العرب، والقراء والمحدثين، وتراجم الفقهاء، وأهل اللغة والنحو والبيان، وطوائف الصوفية، والحكماء والأطباء والشعراء والوزراء والكتاب، وما يتعلق بالحيوان والنباتات، والسيرة النبوية، وتاريخ العالم الإسلامي، وتاريخ الحروب الصليبية والدول المتناحرة.

ولقد أخذت موسوعةُ العمري شهرةً كبيرةً بين العلماءِ والمؤرخين والباحثين في الشرق والغرب، فقال عنها أحمد زكي باشا: "هذا كتابُ(**مسالك الأبصار**)، لابن فضل الله العُمري، لا يُحتاجُ إلى التعريفِ به وبمؤلِّفه، فقد استفاد منه في القرون الوسطى كُلُّ أكابرِ العلماءِ في الشرق؛ من عربٍ وفرسٍ وتركٍ، حتى إذا ما رحَل العلمُ من بلادنا واستقرَّ بأرض أوروبا، تنبَّه المستشرقون إليه فاسْتَقوا من بحره الطامي، مثل: (كاترمير) الفرنسي، و(أماري) الطلياني، فكان لهما القِدْح المعلَّى، والراية البيضاء في استخراج كنوز المعارف من هذا المعدن الغني السَّخي الكريم"، وقال ابن شاكر الكتبي: "كتابُ حافلٌ، ما أعلم أنَّ لأحدٍ مثله".

وقد ظلت هذه الموسوعةُ مخطوطةً حتى بدايات القرن العشرين، فكان أحمد زكي باشا أولَ من نشرَ قسمًا منها سنة 1924م، وهو الجزءُ الأول، ثم تلاه جماعةٌ من العرب والمستشرقين، فقاموا بنشر أجزاءٍ من الموسوعة، أو دراساتٍ عنها بمختلف اللغات الأوروبية، وأبرزهم (كاترمير)، و(ميخائيل أماري)، و(تيزنهوزن)، و(شيفير)، و(دي موبين)، و(تيشنر)، و(ليش)، و(دوروتيا كرافولسكي)، ثم قام فؤادُ سزكين بإصدار أجزائها كاملة بالنشر التصويري سنة 1989م، وفي عام 1994م أعلن المجمع الثقافي بمدينة أبوظبي عن مشروعِ تحقيقِ الموسوعة، وأصدر منها (21) مجلدًا في أوقاتٍ متقاربة، منذ عام 2000م، كما قام (مركز زايد للتراث) بإصدار (25) جزءًا منها في أربعة وثلاثين مجلدًا، تولى تحقيقها نخبة من الدكاترة والباحثين.

حدود النص:

تقع تراجمُ هذا العملِ ضمن محتوياتِ الجزءِ الثالثَ عشرَ من موسوعةِ **(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)**، الذي خصصه المؤلفُ لتراجُمِ الكتّابِ والخطباءِ المغاربة، وقد ألفيته موضوعًا طريفًا، جديرًا بالدراسة والتحقيق؛ لأنَّه يُطلعُنا على نظرةِ المشارقةِ إلى أدبِ المغاربة، بله حفظه لتراجُم قد تكونُ مفقودةً حتى في بيئتها المغربية، وأجدُ من الضروري أن تطلِعَ الأجيالُ الجديدةُ في المشرقِ والمغربِ على عمقِ التواصلِ بين صفحتي كتابِ الثقافةِ العربية؛ لترى الجذورَ المعرفيةَ التي توحِّد الرؤيةَ العامةَ إلى درجةِ التمازج، فلم يكن المؤسسون الكبارُ لثقافتنا يتوجهون إلى ثقافةٍ مشرقيةٍ أو مغاربية، فابنُ عربي،

وابنُ خلدون، وابنُ البيطار، وأمثالُهم كُثُرٌ، حتى عصرِ الأمير عبد القادر الجزائري وما بعده، عاشوا بين مشرقِ الأمةِ ومغربها؛ ليؤسسوا ثقافةً عربيةً إسلاميةً واحدةً في مصادرها الكبرى، متنوعةً في إبداعاتها.

ونظرًا لضخامةِ مادةِ هذا الجزء، فقد اكتفيتُ بتحقيقِ مائةٍ وإحدى وثمانين صحيفة منه ودراستِها، من صحفِ الجزءِ الثالثِ عشر من الكتابِ المذكور، ضمتْ تراجمَ تسعةٍ وخمسين كاتبًا؛ويمكن تقسيمُ هذا العمل إلى قسمين: القسم الأول: المقدمةُ التي لخَّص فيها المؤلفُ غرضَه من تأليفه له،والقسمُ الآخر: يحمل تراجمَ الكتّابِ المغاربة.

استهلَّ المؤلفُ تقديم التراجم بقوله: "فأمَّا الكتّابُ المغاربةُ، ومالهم من نجومٍ غيرِ غاربة، فسآتي منهم على بحورٍ تزخرُ عُبابًا، وتسحرُ ألبابًا، أبدأُهم بابن بسَّام وغُررِ ما ابتكر، ثم بالفتح بن خاقانَ وأعيانًا مِمَّن ذكر، وأُذيِّل على ابن خاقانَ إلى هذا الأوان"، انتهى النص.

وتجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ العمريَّ بوصفه الكتّابَ بالمغاربة، إنَّما أراد الدلالةَ على كتّاب المغربِ الإسلاميِّ برمته؛ أي منطقةِ المغربِ (المغرب وتونس والجزائر) والأندلس، وممّا يدل على ذلك، أنَّنا نجد كتّابًا أندلسيين ضمن المُتْرَجَمِ لهم؛ من أمثال:ابنِ بسَّام، صاحبِ **(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)**، وابنِ خاقان، صاحبِ **(قلائد العقيان)**، وبعضٍ من ترجم لهما هذان الكاتبان، وغيرِهم من الكتّابِ الأندلسيين البالغِ عددِهم: اثنين وثلاثين كاتبًا؛ أي أنَّهم تجاوزوا نصفَ مجموعِ تَرَاجِمِ الكتّابِ بالكتابِ، وهذا الاستعمالُ الواسعُ لكلمةِ

المغاربةِ، نجد تبريرَه في كونه يتماشى مع ما كان يقصده الرحالون والمؤرخون؛ الذين تَرجَموا أو كَتبوا عن الأعلامِ الأندلسيةِ والمغربيةِ في بلادِ المشرقِ؛ فالمصادر لا تقيم تمييزاً واضحًا بين الأندلسيين والمغاربة، ويبدو أنَّ جميع من كانوا من الأندلس أو من أقطار المغرب قد عُرفوا بالمغاربة بشكل عام.

بلغ مجموع التراجم في هذا الجزء تسعة وخمسين كاتبًا من الكتّاب المغاربة في عصور الطوائف والمرابطين والموحدين، أي ما يمتد تقريبًا من منتصف القرن الخامس الهجري، إلى ما يقرب من نهاية القرن السابع الهجري، وهي مادة غير قليلة في أهميتها من حيث الكثرة، والمدة الزمنية، والقيمة العلمية.

ويمكن تصنيف تراجم هذا الجزء إلى ستة أصناف، على النحو الآتي:

1. ترجمة أبي الحسن علي بن بسَّام.
2. ترجمة أبي النصر الفتح بن محمد بن خاقان.
3. من ترجم لهم الفتح بن خاقان من الكتّاب المغاربة في كتابه (**قلائد العقيان في محاسن الأعيان**)، وبلغ عددهم واحدًا وعشرين كاتبًا.
4. من ترجم لهم ابن بسَّام في كتابه: (**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**)، وبلغ عددهم أحد عشر كاتبًا.
5. ترجمة أبي عبد الله محمد بن محرز الوهراني.

6. من سمع المؤلف تراجمَهم شفهيًا من أبي عبد الله بن عبد الواحد الإلبيري، وعددهم أربع وعشرون كاتبًا من كتّاب الدولة الموحدية.

المادة الأدبية:

1. المادة النثرية:

تنوَّعت المادة الأدبية في هذا الجزء بين النثر والشعر، ولما كان هذا النص مُعدًّا لتراجم الكُتّاب؛ فقد كانت العناية موجهة إلى المادة النثرية، وتبدو تلك العناية واضحة فيما أثبته المؤلف عبر صفحاته من مختارات نثرية، بلغت حوالي ستة وتسعين ومائة نص نثري، متفاوت الطول في مختلف فنون النثر من: رسائل أدبية، بلغت ثماني عشرة ومائة رسالة متعددة الأغراض والمضامين، ومنها ما انفرد العمري بذكرها، كرسالة لأبي الحسن بن فضيلة، يعزي فيها أحد أصدقائه، وقد عُزل عن منصب القضاء، وقد أوردها العمري كاملة، وكذلك رسالة لأبي بكر بن قُزمان في وصف روضة غناء، تردد عليها مع رفاقه أيام الربيع،وأيضًا رسالة في خطب الود لأبي بكر بن رُحَيّم، وهي وإن كانت قصيرة، إلا أنَّ أهميتها تكمن في أنَّ المؤلف انفرد بذكرها.

ولئن كانت السمةُ الغالبةُ على نثر هذا الجزء هي كثرة الرسائل؛ فإنَّه لم يكن خلوًا من أغراض نثرية متفرقة أخرى، فقد أورد لنا العمري بعضًا من التوقيعات والمقامات والحواريات والمنامات والأمثال، وغير ذلك من الفنون النثرية التي طرقها كتّاب هذا الجزء، وردت من حيث أسلوبُها في اتجاهين: الاتجاه القائم على الصنعة البديعية، وهو اللون السائد في ذلك العصر، والاتجاه

التقليدي المتَرسّل، الذي لا يأبه بالبديع إلاَّ ما جاء عرضًا، وفي هذا دلالة على الطابع الشمولي للاختيارات.

2. المادة الشعرية:

إنَّ العمري وإن كان قد خصص هذا الجزء لنتاج الكتّاب، الذي يكون نتاجًا نثريًا عادة، فإنَّه لم يستطع الإفلات من تسجيل بعض المقطوعات أو القصائد الشعرية، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة الكتّاب أنفسهم، فهم لم يهملوا النظم، فجمعوا إلى جانب النثر شعرًا، وساروا في ذلك على نهج أغلب معاصريهم من كتّاب الأندلس، فالكاتب في العصر الأندلسي، لا يعني بالضرورة قصر نتاجه على الجانب النثري فقط؛ فالثقافة الأدبية تلك الآونة وفي الأندلس بالذات، تكاد تكون عامة بين المثقفين؛ فلا نكاد نقرأ ترجمة لفقيه، أو أمير، أو متصوف، إلاَّ نجد له شعرًا؛ ولعل السبب في شيوع هذه الظاهرة في الأندلس، يعود إلى التكوين الثقافي للأدباء، بالإضافة إلى طبيعية الأندلس الخلاَّبة التي عاشوا بين أحضانها.

وجاءت النصوص الشعرية في الجزء على ثلاثة أشكال: المزدوجات: وعددها خمس وثلاثون مزدوجة، والمقطعات بلغ عددها خمسة وثلاثين مقطعة، وأمَّا القصائد التي زادت أبياتها عن ستة أبيات متحدة الوزن والقافية، فقد بلغت إحدى عشرة قصيدة.

وأمَّا فيما يتعلق بالأغراض، فقد أورد العمري نصوصًا تطرَّق فيها الكتّاب لأكثر أبواب الشعر المعروفة في زمانهم؛ من مدح، ووصف، وغزل ورثاء، وما أشبه، عدا غرض الهجاء الذي عفَّ قلمه عن تسجيله، فخلا منه هذا الجزء،

ومن خلال تتبعنا للاختيارات الشعرية بهذا الجزء، كشفنا عن الاتجاه المحافظ في منهج العمري الأدبي، حيث أعرض عن تسجيل النماذج الشعرية الخارجة عن الفصحى والأعاريض الخليلية، وبهذا كشف عن انضمامه إلى جانب النقاد المحافظين الملتزمين بنظام الشعر التقليدي، ومنهم ابن بسام، الذي استنكف عن ذكر الموشحات في كتابه (**الذخيرة**)، وابن خاقان في كتابيه (**القلائد**) و(**المطمح**).

3. المادة النقدية:

أمَّا المادة النقدية، فقد حصر العمري اهتمامَه في هذا الجزء على ترجمة الكتّاب والتعريف بهم، وعرض نتاجهم، غير أنَّنا مع ذلك نرى له وقفات نقدية، تكشف عن امتلاكه لذوق النقدة، وحسِّ الأدباء، ويبدو ذلك في المقدمات التي ساقها في مفتتح كلِّ ترجمة من تراجم أولئك الكتّاب، التي كانت في معظمها أحكامًا تحمل طابع المبالغة والتعميم، وتكاد تكون خاليةً من التعليل والنظرة الجزئية الدقيقة للمعاني، والموازنةِ بين الأساليب المختلفة؛ ولعل هذا مرجعه إلى انهماك المؤلف في جمع مواد موسوعته، بالإضافة إلى انضباطه بمنهجية اختطها في تأليف هذا الجزء، والتي حصرها في الترجمة، وعرض النتاج دون التعرض للنقد والتحليل، وهذا ليس بدعًا انفرد به العمري، فمعظم المصادر التي تقوم على التراجم وعرض النصوص الأدبية، سارت على هذا النهج؛ ومنها على سبيل المثال: (**أنموذج الزمان في شعراء القيروان**)، لابن رشيق القيرواني، و(**المغرب في حلى أهل المغرب**)، لابن سعيد،

و(**خريدة القصر**)، للعماد الأصفهاني، وهذا أمر بالطبع لا يقلل من قيمتها ما دام منهج التأليف فيها اقتصر على الترجمة، وعرض النصوص الأدبية.

مصادر النص:

تنوعت مصادر ابن فضل الله العمري في تراجم كتّاب هذا الجزء وعرض نتاجهم، ما بين كتب ورقاع وروايات شفهية، ومن الكتب ما وصلتنا مثل: (**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**)، لابن بسام، الذي نقل عنه اثني عشر نصًا من نثر ابن بسام، وإحدى عشرة ترجمة، و(**قلائد العقيان**)، للفتح بن خاقان، الذي نقل عنه تسعة وثلاثين نصًا نثريًا من إنشاء ابن خاقان، كما ارتكز عليه في ترجمة واحد وعشرين كاتبًا، وبالنظر في النصوص الأدبية التي نقلها من هذين المصدرين، نرى أنّه لم يلتزم بنقلها حرفيًا فهو كثيرًا ما يقتضب حيث يبدو له النص طويلاً.

ومن مصادره أيضًا التي اعتمد عليها كتاب (**المُغرب في حُلى أهل المَغرب**)، لابن سعيد ونقل عنه،وكتاب (**اللمعة**)، الذي نقل عنه رقعة لأبي بكر بن قزمان يصف فيها روضة، ولم نعثر على اسم هذا الكتاب ولا مؤلفه، فيما اطلعنا عليه من مصادر؛ ممَّا يكسب هذا الجزء أهمية بالغة في إشارته إلى مصدر قد يكون مفقودًا.

منهج العمري في تأليف هذا النص:

قسم العمري تراجم هذا الجزء إلى قسمين: المقدمة، وتراجم الكتّاب، ووضع لكل مصدر من المصادر المذكورة آنفًا، مقدمة موجزة لا يتجاوز عدد سطورها الخمسة أسطر، تحمل إشارةَ البدء في تراجُمِ ذلك المصدر.

وأمَّا منهجه في ترجمة الشخصية، فقد اتبع العمري في ذلك منهجًا سهلاً لا تعقيد فيه، يكاد يكون واحدًا في جميع التراجم، تتضح في افتتاح الترجمة بديباجة نثرية موجزة، يصف فيها المترجِم له، بأسلوب يعقد فيه السجع بين كل جملتين، بل قد يتعدى إلى الجمل الثلاث والأربع أحيانًا.

وأمَّا عن معالم شخصية المترجِم له في هذه المقدمة، فإنَّ العمري لا يستهدف جمع المعلومات عنها ليوضحها للقارئ من خلال المقدمة؛ بل يحاول أن يضيء بعض أطرافها، بدون أن يلزم نفسَه بنمط واحد في كل التراجم، فهو تارة ينسب الشخصيةَ إلى موطنها، وتارة أخرى يأخذ جانبًا من الشخصية، ويشبهه بشخصية أخرى، وأحيانًا يعمد إلى تلخيص مسيرة حياة الكاتب في هذه المقدمة؛ إلا أنَّ أهم معالم الشخصية التي عُني العمري بذكرها في هذه المقدمة، هي بيان الخصائص الفنية للكتّاب، ومنزلتهم.

يذيل العمري هذه المقدمة النثرية بنقل ما وصفه مصدر الشخصية المترجم لها، مقدمًا ذلك بلفظة قال أو ما في معناها، وقد تطول مقدمةُ الترجمة أحيانًا لتشغل مساحة ثلاثة وعشرين سطرًا، وقد تقصر إلى حدِّ أنَّها لا تتجاوز سطرًا واحدًا.

يسوق العمري بعد هذه المقدمة النثرية بعضًا من نتاج المترجم لهم، تتضمَّن نصوصًا نثرية وشعرية، تبيِّن منزلتهم ومكانتهم الأدبية، ملتزمًا بتقديم النتاج النثري على الشعري، ولا يحيد عن هذا التقديم في جميع تراجمه، ولا عجب في ذلك فالمترجِم لهم كتّابٌ والمادةُ الأدبيةُ بهم ألصق.

وبذلك يمكن القول: إنَّ العمري نهجَ في تأليف هذا الجزء منهجًا ينمُّ في مجمله عن ذوق صاحبه في الاختيار والحذف والتقديم والتأخير، كما ينمُّ عن

حرصه على تقديم تراجمه وعرض نتاجهم في صورة منظمة، لا اضطراب ولا تداخل فيها.

لغة العمري وأسلوبه في كتابة هذا النص:

إنَّ فن التراجم كغيره من فنون النثر الفني يحتاج إلى أسلوب أدبي خاص، يستطيع بواسطته المؤلفُ توصيلَ الحقائقَ للقارئ بجلاء ووضوح؛ حيـثإنَّ الأسلوب هو: الأداة التي يعرض بواسطتها المـؤرخ موضوعه، لذلك يلزمه الاعتناء به ومراعاة المستوى العلمي والوسط الاجتماعي الـذي يكتب له، حتى يكون واضحاً ومؤدِّياً للأهداف العلمية التي قصدها من بحثه[1].

وكاتب الترجمة حين يقوم بالترجمة لشخصية ما، إنَّما يريد أن يبثَّ فينا نموذجًا حيًّا لشخصية مهمة، وأن يثير فينا الاهتمام بحياة هذه الشخصية وما يربطها بالحياة، فهو "مؤلف روائي يسجل بوعي وفنية الحدث، ويعيد للحياة شخصية إنسانية" [2].

ولابد أن يمتلك التجربة الشعورية العميقة، والعبـارة المشرقة الموحية، فهو لا يسرد الوقائع والحوادث، و إنَّما يصورها ويحللها بطريقـة تجعل من صورة الشخصية المترجم لها، إلى جانب الدقة والموضوعية ـعملاً أدبيـاً بكل ما للعمل الأدبي من أسس ومقومات،وعليه أن يجمع بين مهمة المؤرخ وحس الفنان" [3].

[1] انظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه، محمد السلمي، ص 240، طبعة دار الوفاء، المنصورة 1408هـ/ 1988م.

[2] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3] الأدب وفنونه: دراسة ونقد، د.عز الدين إسماعيل، ص 152، دار الفكر العربي، 2004م.

والمتأمِّل في لغة العمري وأسلوبه في كتابة تراجم هذا الجزء، يجـد من الصعوبة بمكان تحديد خصوصيات اللغة والأسلوب عنده، وذلك لإنَّ مادته في مجملها لم تخلص بالكلية لصياغة العمري وإنشائه؛ بل إنَّ قدرًا لا بأس به منها كان من إنشاء الرواة الذين أخـذ عنهم، أو من إنشاء أصحاب الكتب والمصنَّفات التي نسج منها،الأمر الذي كان سبباً في ظهور ذلك التباين الأسلوبي في صياغة التراجُم، الذي يجعل من الخطأ القول بوجود وحدة لغوية أو أسلوبية فنية، ونقيِّمـه على هذا الأساس.

ولكن بالرغم من التفاوت الأسلوبـي بين المرويات التي جمعها المؤلف من مصادره المختلفة، وكذلك قصـرها ومحـدوديتها،ومن ثم اتساقها بطبيعة خاصة تجعلها ممتنعة على التحوير والخضوع لشخصية الكاتب الأسلوبية؛ فقد استطـاع العمري أن يترك بصمته واضحة على تراجمه، من حيث تقديمه للتراجم وجمعه للمرويات وإعادة تشكيلهـا، حتى ظهرت في قالب سردي جذَّاب فائق الجودة، لم يغيِّر من مادتها شيئاً، بل بقيت محافظـة على فحواها في هذا الموضع الجديد الذي رسمه لها المؤلف.

وهذا هو الإتقان والفن الذي أشار إليه ليون أدل عندما قال: "والفن هنا يكمن في السرد، والسرد يجب ألا يغير من المادة شيئاً، فكاتب السيرة أشبـه بالمؤرخ، إذ أنَّ كلاًّ منهما عبد لوثائقه"[1].

[1] فن السيرة الأدبية، ليون أدل، ترجمة صدقي خطاب، ص14، مؤسسة الحلبي وشركاه، 1973م.

إنَّ أسلوب العمري في تراجمه لشخصيات هذا الجزء، موجز ميسَّر سهل لا تكلُّف فيه ولا مشقة، ولا اهتمام بالزينة والصناعة اللفظية، والذي يُحمد لهذا المؤلف أنَّه لم يخضع في تراجمه لما تفرضه عليه طبيعة عصره، الذي بدأت تشيع فيه الصنعة اللفظية، والزخارف البديعية، فساق أسلوبه مرسلاً غالباً بعيداً عن التأنق والصنعة، وإذا ما نظرنا إلى ما في تراجمه من فقرات مسجوعة، فإننَّا لا نكاد نراها تتعدى أصابع اليدين، وفي معظمها جاءت عفوية طبيعية لا تكلف فيها.

إنَّ رصانة لغة العمري، وتنوع أسلوبه، ووضوحه ودقته، أبرزته كاتباً محققاً مدققاً بين الألفاظ والمعاني، ويملك اللغة التي يصوغ بها عباراته فصيحة لينة منسابة، تجمع بين الفكر والفن وبين العقل والعاطفة؛ وبعبارة أخرى تجمع بين الأدب والتاريخ في آنٍ واحد، وهذا الجمع بهذا الإتقان والمهارة لا يتأتَّى إلا بنوع من الطواعية الجذابة في الأسلوب، والليونة المرنة في اختيار الألفاظ، للتعبير عن الحدث التاريخي بأسلوب سهل مرن لا صلابة فيه ولا جلف؛وبذلك يدحض ما ادّعاه رودلف زلهايم، الذي ذكر أنَّه "عند ما يستعين المستشرق الغربي بمراجع التراجم المتنوعة الغنية التي خلفتها لنا العصور الإسلامية يسترعي انتباهه جفاف في مادتها سواء في لغتها وفي طريقة عرضها"[1].

[1] رودلف زلهايم، "خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية"، مجلة مجمع اللغة العربية، ص27، الجزء41، مايو 1978م / جمادي الأول 13987 ؟

ولعل الذي دفعه إلى تعميم ادعائه على تراجم العصور الإسلامية هو الجهل والتحامل، لأنَّه وإن عثر على جفاف مادة بعض كتب التراجم، فلا يحقُّ له أن يسحب هذا الادعاء على كل المؤلفين الذين يحرصون أن يكسبوا أسلوبهم زيّاً خاصاً يرقون به إلى ذروة التعبير الأدبي بما فيهم ابن خلّكان، وفي ذلك يقول انطوان ماييه: "والعالم الشريف هو ذلك الذي يعرف كيف يحذر الجزم"[1].

قيمة النص:

إنَّ هذا الجزءَ يحملُ بين طيَّاته قيمًا متنوعةً: أدبيةً، وعلميةً، وثقافيةً، وتاريخيةً، وتوثيقيةً، يمكن عرضُها بإيجازٍ في النقاطِ الآتية:

1. نبَّهت هذه الموسوعة على أنَّ عصر المؤلف - عصر المماليك - لم يكن عصر انحطاط،أو انحدار،أو ركود، كما درج غالب الدارسين والنقاد على تسميته؛ وإنَّما هو عصر نشطت فيه حركة التأليف والكتابة، التي انبثقت من رؤية فكرية واعية، تنمُّ عن استيعاب كامل لصورة العصر وعلومه، وضرورة مجاوزة المحن والنكبات التي حلَّت به بالمحافظة على التراث العربي الإسلامي من الضياع من خلال جمعه وشرحه وتهذيبه، وينتظر منا كبير العناية، وكثير الاهتمام، بتحقيقه تحقيقًا علميًا، ودراسته دراسة نقدية، تنفض عنه ما علق به من أوهام.

[1] علم اللسان، ترجمة د. محمد مندور، ضمن كتابه "النقد المنهجي عند العرب"، ص 462، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

2. ضم هذا الجزء تراجم لكتّاب شغلوا مساحة زمانية تقرب من القرنين، وهم وإن كان منهم من نجد له ترجمة في مصادر أخرى، إلا أنَّ بعضهم اكتفت المصادر بمجرد ذكره ضمن كتّاب عصرهم، وهم: (أبو القاسم بن الأزرق، وأبو القاسم القالمي، وأبو محمد المرجاني)، كما أنَّ منهم من تعزُّ ترجمته في مصادر أخرى غير هذا الجزء، وهم: (أبو إسحاق بن حاتم العبسي، وأبو الحسن بن أبي الحسن الرعيني، وابن عبد الحميد بن يحيى، وأبو العباس أحمد بن عبد النور).

3. اشتمل هذا العمل على نصوص نثرية وشعرية تناولت مختلف الأغراض؛ فقد ضم حوالي ستة وتسعين ومائة نص نثري، إلى جانب تسع وسبعين قصيدة ومقطوعة شعرية، اختلفت موضوعاتها وفنونها، وبعضها يُعَدُّ في حكم المفقود حسب علمي واطلاعي، وهي على حالها هذا لا تُخفي ذوق صاحبها الرفيع في انتقائها وحسن تنسيقها لموادها، وتنوّع كتّابها وتوازن ما اختاره من آثارهم النثرية في كل أبوابها.

4. اعتمد العمري في توثيقِ مادةِ هذا الجزءِ على مصادرَ بعضُها في حكم المفقود، وبعضُها الآخر من مسموعاته، ممَّا يضفي قيمةً علميةً لهذا الجزء، وهذه القيم الثلاثة الأخيرة تجعل هذا العمل مصدرًا أصيلاً من مصادر الأدب الأندلسي المغربي.

5. سجَّل المؤلف في هذا الجزء بعضًا من نتاجه النثري، والمتمثل في رسالتين: الأولى في زفاف بنت تنكز إلى ابن أبي بكتمر الساقي، والأخرى في وصف جرو.

6. تحمل تراجم هذا القسم جانبًا ثقافيًا؛ فقد استوعبت نصوصًا تعكس لنا ثقافة عصر قائليها، وما كان يسودها من قيم وآراء.

7. كما تلقي الضوء على صورة الحياة السياسية والاجتماعية في عصور الطوائف والمرابطين والموحدين، من خلال ما نُقل من نتاج تلك التراجم.

8. نقل هذا الجزء جانبًا إنسانيًا من القرن الثامن الهجري، ومعنى نبيلاً من معاني الترابطُ بين أبناء الشرق والغرب، وأبرزَ عمقَ التواصل الفكري، وهو يؤكد ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - في كتابه **(البحث الأدبي)** حيث قال: "إنَّ أدباء العالم العربي في مشارقه ومغاربه انفصلوا عن بيئاتهم، واندمجوا في بيئة عامة واحدة، وهو اندماج يعبر عن إحساس قوي بالمحافظة على شخصية الأدب العربي، التي ثبتت له على مر الزمن".

9. كشف لنا هذا النص المحقق عن اختيار مشرقي لنصوص أندلسية ومغاربية، ربما كان لها الأثر في أقلام الأدباء المشارقة، كما أبان عن كثرة استشهاد الكتّاب المغاربة والأندلسيين بنصوص لبعض مشاهير أدباء المشرق.

10. تعكس هذه الموسوعة الشاهد الثقافي على التفاعل بين المشرق والمغرب في أخصب عصور التاريخ العربي الإسلامي غنى بالتحولات، وقبل أن تبدأ ظاهرة الانقطاع الثقافي بينهما في العصور المتأخرة، وهي الظاهرة التي ما زالت تعاني منها الثقافة العربية في مشرق ومغرب.

11. عكسَ لنا هذا الجزء بخاصة، وهذه الموسوعةُ وأغلبُ ما كان على شاكلتها، سواءً السابقُ منها أم اللاحقُ، بعامة،رغبةَ بعضِ مفكريِّ المشرق

والمغرب الإسلاميِّ، في تكوين رؤيةٍ تبحثُ عن التواصلِ والتماهي والتشابُهِ في أخصبِ عصورِ التاريخ العربيِّ الإسلاميِّ الغنيِّ بالتحولات، رَغْمَ عدمِ إنكارِهِم لكثيرٍ من التباينِ في التّجْرِبة والخصوصياتِ الثقافية التاريخية لكل قطر، التي لم تُشكِّلْ عبرَ التاريخ كلِّهِ أيَّةَ قطيعةٍ مُدَّعاة، بل إنَّ التفاعلَ التفافيَّ بينهم انتعشَ بالعطاءاتِ المتَبَادَلَةِ، التي استمدَّتْ مقومَاتِها الروحيةَ والفكريةَ من منبعٍ واحدٍ لا يَنْضُب ولا يَجُف؛ منبَعِ التراثِ الإسلاميِّ المشتركِ، الذي كانت اللغةُ العربيةُ وعاءً حافظًا له، وشكَّلتْ مع الدين الإسلاميِّ حبلَ الوريدِ، الذي يشدُّ المغاربةَ بإخوانهم المشارقةِ، والمشارقةَ بإخوانهم المغاربةِ.

وفي الختـــام أيها الفضلاءُ النبلاءُ:

اسمحوا لي باسمكم جميعًا أن أجـدِّدَ التحايا الزكيةَ والشكرَ الوافرَ، لأعضاء المجمع بعامة، وللنُخْبةِ الخَيِّرة، أصحابِ الهمةِ العاليةِ بخاصة، مِمَّن انبرُوا لإقامة هذا الملتقى العلمي، على جهودهم الوَثَّابَةِ، ولكم الشكرُ الجزيلُ موصولُ أيها الحفلُ الكريمُ؛ على الحضور؛ شعورًا منكم بعظمةِ هذا اللقاء، وعظيمِ حقِّ المَجْمَعِ على أبنائه، سائلين اللهَ أن يجعلَ ذلك في موازينِ حسناتِكم جميعًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(طرابلس الغرب ـ الأربعاء: 2018/12/19م)